الاشتراك المعياريّ
بين البلاغة العربيّة والتّداوليّة الغربيّة

د. أحمد مسلمي
كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة
تونس

الملخص:

تشترك البلاغة والتّداوليّة في أنّهما يستعملان اللّغة بوصفها وسيلة لممارسة فعل ما على المتلقّي. فالمتعارف عليه أنّ النّصّ اللّغويّ، هو نصّ تداوليّ أو هو بعبارة أخرى "نصّ في موقف". فالبلاغة والتّداوليّة يتّفقان في مراعاة الملابسات الخارجيّة والعناصر السّياقيّة المختلفة في عمليّة التّحليل. وهي نفس العوامل الّتي راعاها المتكلّم قبل أن يحصل فعل التّلفّظ؛ ليضمن لرسالته اللّغويّة أقصى درجة من المفهوميّة والتّواصل عند المتلقّي: إقناعا وتأثيرا. تُعتبر البلاغة وفق هذا المعيار نظاما من التّعليمات تُستخدم في إنتاج النّصّ. وهي معايير يمكن للمحلّل اللّغويّ فيما بعد أن يَتعرّف على الأشكال البلاغيّة الّتي يستخدمها المرسِل.

The Standard Intersection between Arabic Rhetoric and Western Pragmatics.

Abstract:

Rhetoric and pragmatics converge in their fundamental perception of language as a means of performing an act upon the receiver. It is widely acknowledged that any linguistic text is, by nature, a pragmatic text—or, in other terms, a text situated within a communicative context. Both disciplines share a concern for external circumstances and contextual variables that shape the process of analysis. These are the very factors considered by the speaker prior to the act of utterance, ensuring that the linguistic message achieves the highest possible degree of intelligibility, persuasion, and communicative impact upon the recipient. Within this framework, rhetoric may be regarded as a system of procedural guidelines employed in the production of discourse. Such criteria subsequently enable the linguistic analyst to identify the rhetorical forms and strategies utilized by the sender.

المقدّمة:

نشأت التّداوليّة من رحم المباحث اللّسانيّة الحديثة، وأثارت بنشأتها تلك القضايا في فلسفة اللّغة. أمّا البلاغة فهي تُعرّف بكونها ظاهرة لغويّة. لذلك نجد التّداخل حاصل بالضّرورة بين التّداوليّة والبلاغة. إذا يمكن اعتبار أنّ الظّاهرة البلاغيّة هي واحدة من الظّواهر التّداوليّة ضمن الظّاهرة اللّغويّة الكُبرى. والظّاهرة البلاغيّة مختلفة عن غيرها من الظّواهر اللّغويّة الأخرى، لاعتبارها تراعي ما هو غير لغويّ كالإيحاءات الجسديّة وغير الجسديّة، والسّياقات المقاميّة، والدّلالات الإضافيّة... هذا ما جعلها تحت مجهر مقاربات الرّؤية التّداوليّة؛ أي أنّ الرؤية التّداوليّة بتجاوزها للمعنى الحرفيّ وبحثها في المعاني المضمّنة، تكون هي الأنسب من غيرها من الظّواهر اللّغويّة في تجاوزها للمعنى الحرفيّ إلى ما يُسمى "معنى المعنى". إنّ الدّراسات التّداوليّة تتبنّى الظّاهرة البلاغيّة ضمن مقارباتها باعتبارها استعمالا خاصّا للّغة. أمّا الظّاهرة البلاغيّة في بعدها التّداوليّة، فهي تأخذ من بين حساباتها النّظريّة السّياقيّة ونظريّة أفعال الكلام، وهما نظريتان لهما فضل تأسيس النّظريات التّداوليّة.

تعريف التّداوليّة:

- تعريف كلاسيكيّ:

تُعرّف التّداوليّة بالنّظر الى مستوايْن: منهما ما يتعلّق بالمخاطِب في كيفيّة استخدامه للأدلّة اللّغويّة في صلب أحاديثه وخطاباته، ومنهما ما يهتمّ بكيفيّة تأويل المخاطَب لتلك الخطابات والأحاديث. وبطريقة مبسّطة يمكن أن نطلق على اللّسانيات اسم "الحوار" أو لسانيات "الملكيّة التّبليغيّة" competence de communication وهي نفس الملكة اللّغويّة الصّرفة عند "تشومسكي".

تُعتبر التّداوليّة إذن، ذلك العلم الّذي يبحث ويدرس الأفكار والمعاني والألفاظ والمفاهيم والإشارات... وكلّ ما يحوم حول الاستعمال اللّغويّ. فالتّداوليّة هي أداة للتّفسير والنّقد معا. وأهمّيتها تكمن في اعتبارها وسيلة معرفيّة، نلجأ إليها لتُعيننا على فهم ومعرفة وتمييز هذا الطّرح: هل أنّ ما يُبحث فيه له قيمة ومعنى أم ليس له ذلك؟

- تعريف حديث:

إنّ التّداوليّة من المنظور الحديث، هي تلك الرّؤية الجديدة وما أفرزته الدّراسات والأبحاث من مسلّمات للظّواهر البلاغيّة، وهي تُؤسّس لتحليل هذه الظّواهر البلاغيّة وفق منظور تداوليّ. إنّ البلاغة تحتاج في تحليلها ودراستها إلى المناهج والنّظريّات الحديثة، بما فيها النّظريّات التّداوليّة. لذلك نجد صعوبة في الفصل بين البلاغة بمفهومها القديمة والتّداوليّة، خاصّة فيما يتعلّق بتتبّع تطوّر البحث النّصّي. "لقد أدّى التّداخل الشّديد بين البحوث اللّغويّة والبلاغيّة والأسلوبيّة إلى صعوبة تمييز ما هو نصّيّ ممّا هو غير نصّيّ. إذ أنّ كُلّها تعتني بالمضمون. وإن كانت تتوصّل إليه بطرق مختلفة؛ حتّى أدوات هذه المناهج تتداخل بشكل يدعو إلى الدّهشة، وصار الرّبط بين مستويات اللّغة من صوتيّة وصرفيّة ونحويّة ودلاليّة كسمة مشتركة، وإن أضيف إليها المستوى التّداوليّ الّذي هو جزء أصيل منها."[1]

لو نظرنا في تاريخيّة علاقة البلاغة بالتّداولية ونظرياتها لتوقّفنا عند النّصف الثّاني من القرن الماضي، حينما اعترف "ليتش" leitch.v بأنّ "البلاغة تداوليّة في صميمها؛ إذ أنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسّامع بحيث يحلاّن إشكاليّة علاقتها مستخدمين وسائل محدّدة للتّأثير على بعضها."[2] وقد نجد لهذا الرّأي ما يدعّمه من الآراء الأخرى مثل رأي الألمانيّ "لوسبرغ" lausberg إذ يقول: "أنّ البلاغة نظام له بنية من الأشكال التّصوريّة واللّغويّة يصلح لإحداث التّأثير الّذي ينشده المتكلّم في موقف محدّد."[3]

[1] بحيري (سعيد حسن): **"علم لغة النّصّ المفاهيم والاتّجاهات"**، الشركة المصريّة العالميّة للنّشر والتّوزيع لونجمان، القاهرة 1997م، ص12-13.
[2] فضل (صالح): **"بلاغة الخطاب وعلم النّصّ"**، سلسة عالم المعرفة، مطبعة السّياسة، الكويت، 1992م، ص89.
[3] المرجع نفسه، ص89.

بالنّظر إلى ما سبق، يتّضح لنا أنّ البلاغة والتّداوليّة لهما جانب براغماتيّ يتّفقان فيه، وهو: اعتمادهما على اللّغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقّي باعتبار أنّ النّصّ في حدّ ذاته هو نصّ في موقف؛ فهو لا يرتبط بالباث والمتلقّي فقط، وما يحدثانه من تعديلات مقاميّة وسياقيّة، بل يرتبط أيضا بالتّعديلات الّتي تحدُث في سلوكهما أيضا.

إنّ البلاغة الحديثة بدأت تفرض نفسها لا من خلال وصفها بأنّها ذات أبعاد جماليّة فنيّة فحسب، بل باعتبارها تعتني بالخطاب من حيث هو "خطاب خارجيّ أو يفترض وجود فاعل منتج له، وعلاقة حواريّة مع مخاطب أو مرسل إليه".[4] إنّ التّداوليّة وفق ما سبق هو ذلك العلم الّذي يريد الإجابة عن تلك الأسئلة الّتي طرحها "فرانسوا أرمينكو" وهي: من يتكلّم؟ وإلى من يتكلّم؟ ومع من يتكلّم؟ ومن أجل من يتكلّم؟ ماذا صنع عندما تكلّم؟ ماذا نقول بالضّبط عندما نتكلّم؟ هل يمكننا الرّكون إلى المعنى الحرفيّ لقصد ما؟ ماهي استعمالات اللّغة؟ أي مقياس يحدّد قدرة الواقع الإنسانيّ اللّغويّة؟[5]

حاول الكثير من المهتمّين بالشّأن التّداوليّ أن يبحثوا عن أجوبة لهذه الأسئلة منهم الفيلسوف المغربيّ **"طه عبد الرّحمن"** إذ قال: "أنّ المنطوق به يتوقّف وصفه "بالكلام" على أن يقترن بقصد مزدوج يتمثّل في تحصيل النّاطق لقصد التّوجّه بمنطوقه إلى الغير، ولقصد إفهامه بهذا المنطوق معنى ما، فعرف أنّ المنطوق الّذي به يصل أن يكون كلاما، هو الّذي ينهض بتمام المقتضيات التّواصليّة الواجبة في حقّ ما يسمّى "خطابا" إذ حدّ الخطاب أنّ كلّ منطوق به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا."[6]

ليس الهدف من الكلام هو الكلام في حدّ ذاته، بل الهدف منه هو الدّخول في علاقة مع الآخر باستعمال الألفاظ، وهو ما يُسمّى "العلاقة التّخاطبيّة". فلا كلام بغير تخاطب ولا متكلّم بغير أن تكون له وظيفة المخاطِب، ولا مُستمع بغير أن تكون له وظيفة المخاطَب.[7]

يجرّنا الحديث هاهنا إلى النّظر في أنواع الخطاب والّذي يمكن أن تقسيمه إلى نوعيْن اثنيْن وهما:

- الخطاب المباشر:

يَعتبر التّداوليين أنّ إدخال كلمات القائل في الخطاب بشكل مباشر يعدّ أقصى درجات من الموضوعيّة بقدر ما يلتزم بالنّقل الحرفيّ دون تحريف.[8]

- الخطاب غير المباشر:

يرى **"عبد الرحمن طه"** أنّ النّقل المذكور ليس إلاّ جانبا واحدا منتزعا من جملة جوانب تشتمل عليها العلاقة التّخاطبيّة. وأنّ المتكلّم ليس ذاتا ناقلة فحسب، بل فيه ذوات فوقها يكفي لتبينها أن ندفق النّظر في عمليّة النّقل ذاتها، فالنّقل كما يمارسه المتكلّم هو في الأقل نقلان اثنان. أحدهما صريح يتعلّق بالمعاني الظّاهرة والحقيقيّة المستقلّة عن مقامات الكلام. والثّاني ضمنيّ يتعلّق بالمعاني المضمرة والمجازيّة غير المستقلّة عن هذه المقامات. والمتعارف عنه أنّ النّوع الثّاني من الخطاب هو "انبناء" الكلام على القصد، فيكون معيار الفائدة فيه هو مقاصده لا ظواهره حتّى يقوم الدّليل على خلافه.[9]

نستنتج ممّا سبق ما يلي:

- أنّ العلاقة بين التّداوليّة والبلاغة قد كوّنت علاقة مباشرة بين البلاغة وعلم اللّغة فالنّصّ اللّغويّ هو نصّ تداوليّ، والمشترك بين البلاغة والتّداوليّة هو اهتمام كلّ منهما بالملابسات الخارجيّة والعناصر السّياقيّة المختلفة في العمليّة التّحليليّة للخطاب. فمن المجدي أن ينتفع المحلّل بمعرفة الأشكال البلاغيّة الّتي يستخدمها المرسل.

---

[4] المرجع نفسه، ص89.
[5] أرمينكو (فرانسوا): **"المقاربة التّداوليّة"**، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، د ت، ص07.
[6] عبد الرحمن (طه): **"اللسان والميزان أو الكوثر العقليّ"**، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، ط1، 1998م، ص215.
[7] المرجع نفسه، ص215.
[8] فضل (صالح): **"بلاغة الخطاب وعلم النّصّ"**، ص91.
[9] عبد الرحمن (طه): **"اللسان والميزان أو الكوثر العقلي"**، ص216.

التّداوليّة والاتّصال والتّواصل:

شكّل التّطوّر الحاصل في الدّراسات الأدبيّة الحديثة على الاستفادة من التّداوليّة". فقد ركّزت التّداوليّة على سمة الأدب الاتّصاليّة انطلاقا من أن الاتّصال عموما لا يكتمل دون أخذ الأدب وسياقه في الاعتبار. كما أنّ دراسات الأدب لا يكتمل دون الأخذ في الاعتبار، توظيف الأدب لمصادر الاتّصال المختلفة. إنّ أبعاد هذا الطّرح لا شكّ مثريّة. فالأدب لم يعد نصّا مغلقا أو بنية شكليّة معزولة عن سياقها، بل انّ هذا الاتّجاه أعاد إلى الدّرس الأدبيّ الصّلة القديمة بين الخطابة والشّعريّة. ولهذا فإنّ الدّراسة الذّرائعيّة / التّبادليّة للأدب تسعى إلى اكتشاف التّقنيات العلميّة في النّصّ (الإيحاء والافتراض المسبق، والإقناع) وربطها بالقوى الخارجيّة في عالم الكاتب والقارئ، مثل علاقات التّقاليد الثّقافيّة وأنظمة النّشر والتّوزيع والرّقابة... ويبقى التّركيز في كلّ هذا على صلات الاتّصال والتّفاعل الخاصّة والدّقيقة الفعليّة." [10]

الإقناع مشترك معياريّ بين البلاغة القديمة والتّداوليّة.

إنّ من بين الدّلائل على وجود التّداوليّة في البلاغة القديمة هو: حضور الغاية الإقناعيّة، الّتي اهتمّت بها البلاغة القديمة، ولم يكن هذا الاهتمام موقوفا على الاتّجاه البرهانيّ المتمثّل في نظريّة الحجاج أو ما يُسمّى ببلاغة الحجاج argumentation إذ يضمّ إليه تيارات من البلاغة العامّة "فنظريّة الحجاج تنمّيه وتوسّعه وتطوّره لتدمجه في هموم البحث التّداوليّ الحديث. والبلاغة العامّة تسترجعه بعد أن ضاع منها في ظروف تاريخيّة غير مواتية لتطوير نظريّة بلاغيّة". [11]

إنّ الإقناع هو: "عمليّة خطابيّة يتوخّى بها الخطيب تسخير المخاطَب لفعل أو ترك، بتوجيهه على اعتقاد قول يعتبره كلّ منهما (أو يعتبره الخطيب) شرطا كافيا ومقبولا للفعل أو التّرك."[12]

قال "**طه عبد الرحمن**" عن الإقناع: "عندما يطالب المحاور غيره بمشاركته اعتقاداته، فإنّ مطالبته لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تدرُجُ على منهج القمع، وإنّما تُتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلاليّة متنوّعة تجرّ الغير جرّا إلى الإقناع برأي المحاور، وإذا اقتنع الغير بهذا الرّأي، كان كالقائل به في الحُكم؛ وإذا لم يقنع به. ردّه على قائله مُطلعا إيّاه على رأي غيره، ومُطالبا إيّاه مشاركته القول به."[13]

إن كان الإقناع في العادة يؤتى به لأغراض نفعيّة، إذ يعتمد المرسل إلى الفوز بإقناع المرسل إليه (الجمهور المتلقي) بواسطة الأيطوس "ethos" كما يسميه "هنريش بليث".

إنّ نفس التّوجّه نجده عند البلاغيين القدامى، حيث يقول بليث: في النّموذج البلاغيّ للتّواصل يحتلّ متلقّي الخطاب المقام الأوّل بدون منازع."[14] ذلك أنّ "بناء الخطاب وتداوله مرهون إلى حدّ كبير بمعرفة حاله أو افتراض ذلك الحال. والافتراض المسبق ركن ركين في النّظام البلاغيّ العربيّ، إذ العناية في المقام الأوّل موجّهة إلى المرسل إليه، حتّى فيما يعرف بالمحسنات البديعيّة بوصفها تحقّق هدف المرسل من الخطاب، وذلك بالتّأثير فيه، فالعناية بالمحسّنات ليست من قبيل الزّخرفة اللّفظيّة... كما يُشاع."[15]

قد أولى هذا الطّرح أهميّة كبرى للمتلقّي الّذي قد يفشل العمليّة التّواصليّة، وقد تكون بطريقة مقصودة أو غير مقصودة، كأن يكون المتلقّي غير مفتقر إلى المهارات الاتّصاليّة من قبيل: الإنصات، وإجادة القراءة والكتابة، أو الحالة النّفسيّة المتدهورة الّتي تجعله غير قادر على التّعرض للتّنبيهات الواردة في رسالة ما.... كلّ هذه العوامل تعتبر معوقا في الإقناع ...

---

[10] الدويلي (ميجان)والبازغي (سعد): **"دليل الناقد الأدبي"**، المركز الثقافي العربي، الدار البيداء، المغرب، ط3،2000، ص169.
[11] العمري (محمد): **"نظرية الادب في القرن العشرين"**، الدار البيضاء، المغرب، 1996م، ص132.
[12] الشهري (عبد الهادي بن ظافر): **"استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداوليّة"**، ص451.
[13] عبد الرحمن(طه):**"في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"**، المركز الثّقافيّ العربيّ، المغرب، ط5، 2014م، ص38
[14] بليث (هنريش): **"البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النّصوص، ص38.**
[15] الشّهري (عبد الهدى بن ظافر): **"استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة"**، ص47،48.

نستنتج من خلال ما سبق، تلك العلاقة القويّة بين البلاغة والتّداوليّة، لاهتمام بلاغة البرهان بالجانب الإقناعيّ، الّذي يأخذ المتلقي في حسابه، وبذلك تولى هذه البلاغة البعد التّداوليّ اهتماما إضافيّا، فمن أهمّ أهدافها دراسة تقنيات الخطاب الّتي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض الّتي تقدّم لهم، أو تعزيز هذا التّأييد.

إنّ من محاور اهتمام البلاغيين الجدد هو: انشغالهم بالبحث عن طبيعة التّواصل في الخطاب البلاغيّ، من خلال تحديد عناصره، ووظائفه، وكشف مقاصده الظّاهرة والمضمرة، مستلهمين في ذلك المبادئ الأساسيّة الّتي قامت عليها النّظريّة التّداوليّة وهي: تعتبر ثورة حقيقيّة في الدّراسات اللّغويّة المعاصرة. ويمكن أن نلخّص هذه المبادئ فيما جاء به فرانسوا أرمينكو "مفهوم الفعل ومفهوم السّياق ومفهوم الإنجاز" [16]

يُقرّ **"رولان بارت"** أن الأهداف التّواصلية في البلاغة القديمة تجعل من البلاغة مؤسسة اجتماعيّة فقد كانت عند الإغريق "فن الكلام حسب بعض القواعد، وهي في نفس الوقت علامة سلطة اجتماعيّة وأداة لهذه السّلطة." [17]

ركّز التّداوليون في دراستهم للجانب التّداوليّ للبلاغة على ثلاثة أنماط أساسيّة من المقصديّة وهي: المقصدّية الفكريّة والغرض الحجاجيّ والمقصديّة العاطفيّة المعتدلة. فلكلّ شيء أهدافه النّفعيّة، وأنّ رسالة لها قصدها وموقفها وظروف تلقيها.

1. المقصديّة الفكريّة:

يضمّ هذا النّوع من المقصديّة ثلاثة مكونات أساسيّة ووهي الغرض التّعليميّ، والغرض الأخلاقيّ، المكوّن الحجاجيّ والمكوّن الأخلاقيّ، ورغم تداخلها إلى درجة التّماهي، إلاّ أنّنا سنحاول أن نعرّف بها على نسق مستقلّ.

أ. الغرض التّعليميّ.

نجد هذا التّنوع بكثرة في النّصوص العلميّة والإخباريّة. فهذا النّوع من الخطاب يعتمد الحياد والموضوعيّة والصّرامة... وبذلك فهو إخبار المتلقي بواقع ما دون استدعاء العواطف. يتعارض هذا النّوع مع القول القائل بأنّ الخطاب البلاغيّ هو خطاب جماليّ في مجمله. فالكثير من النّصوص البلاغيّة خاصّة التّعليميّة والإخباريّة يكون مرتكزها الفعليّ هو الجانب الإخباريّ من الخطاب ولا يكون هدفها التّأثير العاطفيّ أو العقليّ في المتلقّي. وإنّما يكون نصب التّركيز على موضوع الخطاب وهدفه بالأساس وضع المتلقي أمام الموضوع لتحقيق الجانب التّعليميّ والاستفادة والفهم. وهذا ما أقرّ به الجاحظ من قبل عندما قال أنّ الهدف الأساسيّ للبلاغة هو الفهم.

ب. الغرض الحجاجيّ.

يعتمد العقل وسيلة وهدفا في آن واحد. ويتمثّل في جعل موضوع الخطاب ممكنا بالرّجوع إلى العقل. ويمكن أن يتحقّق ذلك بالرّجوع إلى الوقائع الموضوعيّة وعلى الخلفيّة العامّة المكوّنة من آراء المجتمع. ويتحقّق هذا الغرض بالحجة المنطقيّة وشبه المنطقيّة الاستقراء الّذي يسير من الخاصّ إلى العام أو الاستنباط الّذي يسير من العامّ إلى الخاصّ. والهدف الأساسيّ من ذلك هو جعل غير المحتمل محتل محتملا. "يمتد هذا النّشاط إلى جانب البرهانيّ للخطاب. كما يمتد إلى أي شكل من النّصوص الحجاجيّة."[18]

ج. الغرض الأخلاقيّ.

نجد هذا النّوع في **"الايتيقا"** من دين ووعظ وإرشاد وتوجيه... هدفها الأساسيّ محاولة إصلاح سلوك الفرد والمجتمع. يتمثّل في صورة المصل الاجتماعيّ الّذي لا يسعى من خلال خطابه على نقل أخبار معينة على المتلقي وحسب. وإنّما يركّز في عمليّة الإخبار على جانب التّأثير والإقناع، ممّا شأنه أن يساعده على إيصال أفكاره ومعارفه وتبليغها. ومن هذا الموقف يشير "هنريش لليث" إلى المخاطب يجمع بين الغرض التّعليميّ والغرض الحجاجي في محاولة منه لإقناع المتلقي بجدوى ما يرد في خطابه. فيحمله ذلك إلى الإقرار به. وعلى هذا الأساس يحدث الخطاب الأخلاقيّ الّذي يتمثّل فيه عناصر النّصّ انتقال من المقاصد الفكريّة إلى المقاصد العاطفيّة."[19] أمّا المتلقّي فيكون حسب قول محمّد العمري هو" موض الغافل المقصّر." الّتي يحتاج إلى من يكشف غفلته وينير دربه.

---

[16] ارمينكيو (فرانسوا): **"المقاربة التّداوليّة"**، ص09.
[17] بارت(رولان):"البلاغة القديمة"، تر: عبد الكبير الشرقاوي، الدار البيضاء، ص187.
[18] حفناوي (بعلي): **"مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة"**، دار اليازوري العلميّة، ط1، 2013م، ص71.
[19] بليث(هنريش): **"البلاغة والأسلوبيّة"**، ص26.

2. النمط العاطفيّ.

يهدف هذا النّمط إلى دغدغة مشاعر السّامع وترغيبه في إحداث تجاوب انفعاليّ خفيف. أو ما سماه أرسطو "بالأيطوس" وهي عبارة عن الحالة العاطفيّة الّتي يحدثها خبر ما في السّامع وهو ما سمّاه "نروثر بفراي" بالمصطلح الدّال على السّياق الاجتماعيّ الدّاخليّ للعمل الأدبيّ. ولهذا النّمط من المقاصد مكوّنان:

أ. المكوّن الغائي:

يهدف الخطاب من خلال استخدام الإيطوس إلى محاولة الظّفر باقتناع المتلقي. وفي هذه الحال يجب برأي "هنريش" أن يكون الإقناع خارج النّصّ، بمعنى أنّ الخطاب ههنا سيسعى إلى محاولة استثمار بعض الجوانب الخارجيّة الّتي ستساعده في الوصول إلى مشاعر المتلقّي لاستمالتها نحو موضوعه والتّأثير فيه. ومثال ذلك الكوميديا والنّصّ الإشهاريّ.[20]

ب. المكوّن غير الغائيّ:

يظهر هذا المكوّن عندما يتحوّل غرض الخطاب البلاغيّ من خارج النّصّ إلى داخله. وذلك بالاكتفاء بجعل المتلقّي يشعر بشيء من اللّذة أو المتعة الجماليّة. وفي هذه الحالة نجد أن تداوليّة الخطاب تنحصر في بنيته النّصيّة الّتي تكون مناط التّفكير والقصد. حيث يكون اهتمام المتكلّم منصبا على تدبيج نصّه بشتى الأشكال الجماليّة الّتي تسمح له بأداء وظيفته التأثيريّة.[21]

إنّ أوّل من اهتمّ بالمكوّن الغائيّ هو أرسطو في كتابة "فن الشّعر" وفيه أكّد أنّ الشّكل في العمل الفنيّ هو الّذي يشكّل هدف الشّعر وقدرته على جلب المتعة للمتلقين.

ما يمكّن أنّ نقرّ به هو: أنّ هذه المقاربة بين البلاغة والتّداوليّة والتّواصل بررتهما مجموعة من الدّراسات مستعينة في ذلك بالتّراث البلاغيّ من جهة ونتائج العلوم المستحدثة من جهة ثانيّة. ومنطلقهم في ذلك انّ البلاغة أو ما تنصرف على دراسة هو الإبلاغ.[22]

إذا كان المستمع هو هدف البلاغة باعتباره المقصود من عملية التّواصل. أمّا المتكلّم فيراعي من يوجّه له الكلام، هذا الطّرح دعت إليه البلاغة الجديدة، حيث يذكر بيريلمان Perelman " أنّ ما ينبغي ان يحتفظ به البلاغة التّقليدية إنّما هم فكرة المستمعين الّتي تنبثق من فهم طبيعة الخطاب، فكلّ قول يوجه لمستمع، وغالبا ما ننسى أنّ الشّيء ذاته يحدث بكلّ مكتوب. وبينما نتصور الخطاب بالنّظر إلى المستمعين فإنّ غياب القراءة ماديا ربّما يجعل الكاتب يظنّ أنّه وحده في هذا العالم. بالرّغم من أنّ نصه في الواقع مشروط دائما بهؤلاء الّذين يتوجّه إليهم. واعيا أو بشكل غير واع."[23] وقد قسّم "هنريش بليث" مقامات التّواصل إلى:

اسم المقام	رمزه	وظيفته
مقام التواصل اليومي	ت ي	الإخبار
مقام بلاغيّ	ت ب	الإقناع
مقام شعريّ	ت ش	مقصود لذاته
مقام ناقص	ت ن	غير تامّة

إنّ هذا التقسيم قد لا يكون هو التّقسيم الأكثر صرامة للمقامات التّواصل، فنحن لا نستطيع أن ننكر بشكل مطلق الأبعاد البلاغيّة بوظيفتها الإقناعيّة والجماليّة في مقام التّواصل اليوميّ. فالأحاديث والمعاملات اليوميّة تنطوي على هذه الأبعاد الإقناعيّة والشّعريّة بنسب متفاوتة

[20] حفناوي(بعلي):**"مسارات النّقد ومدارات ما بعد الحداثة**، ص71-72.
[21] مختار(ملاس): "البلاغة والتّداوليّة قراءة في تداوليّة الخطاب البلاغيّ"، ص149.
[22] عبد المجيد (جميل): "البلاغة والاتصال، دار غريب/ مصر دط، 2000، ص16.
[23] فضل (صلاح)، "بلاغة الخطاب وعلم النّصّ"، ص94-95.

وبصورة جزئيّة، ولعلّ معالجات نظريّة أفعال الكلام وما أسفرت عنه من مناقشات على يد "أوستين" و"سيرل". ثمّ من بعدهما "جرايس" قد أولت المحادثات اهتماما كبيرا وقد اهتمّ "هنريش بليث" بذاك التّداخل بين الوظائف: فإذا مال التّواصل البلاغيّ نحو التّواصل الشّعريّ فإنّ الصّورة البلاغيّة تتحوّل إلى صورة شعريّة، وهذا يتضمّن تغييرا في الوظائف، ففي حين يرتبط التّواصل البلاغيّ (مثل التّواصل اليوميّ) بوظيفة مقصديّة ملموسة. لا بوظيفة لسانيّة فإنّ الغرض من التّواصل الشّعريّ حسب "ياكوبسون" ليس إلاّ غرضا في ذاته (الغائيّة الذاتيّة)، أي أنّ الدّليل اللّسانيّ الثّاني يحيل على نفسه ومن هذه الزّاوية، فإنّ التّواصل الشّعريّ لا يرتبط بعناصر خارج اللّغة بل يكون له نظامه التّواصليّ الخاصّ.

إنّ التّقارب بين البلاغة والتّداوليّة أمر بات مؤكّدا من ذلك ما قاله "فان ديك" vandjik إذ أشار إلى أنّ هذه البنيات "تستهدف نجاعة النّصّ في المقام التّواصليّ وبعبارة أخرى فإنّ المستعمل إنّما يلجأ إلى بعض البنيات البلاغيّة لأغراض استراتيجيّة؛ أي لكيّ يوفّر شروط القبول لكلامه عند المخاطب ولكي يراه تبعا لذلك وقد أحدث عند الاقتضاء أثرا (معرفة وفعلا)"[24]

تجدر الإشارة إلى أنّ الكثير من أفكار البلاغة العربيّة القديمة تتلاقى مع النّظريات التّداوليّة الحديثة. فقد أولت البلاغة العربيّة القديمة البعد المعياري الّذي يهدف إلى غاية الإفهام والإبانة عناية في تناولها لفكرة المقام ويتوزّع هذا البعد المعياريّ بين غايتيْن تتحدّان في: الغاية الإبلاغيّة والإفهام واللّتان تراعيان مبادئ الطّبقيّة المعرفيّة وغاية اللباقة ومراعاة المعايير الطّبقيّة الاجتماعيّة. وهذا يعني أنّ التّبليغ والإفهام وتمكّن المتلقي من الغايات الجوهريّة للقول البليغ. يقول "مسعود صحراوي" في هذا: "سيسهم في وصفها (التّداوليّة) ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابيّة التّواصليّة. كما نعتقد أنّ استثماره في قراءة الإنتاج العلميّ لعلمائها سيسهم في اكتشاف وتثمين جوانب من الجهود الجبارة الّتي بذلها أولئك العلماء الأجلاء."[25]

خلاصة البحث

إنّ تداخل البلاغة العربية باللّسانيات التّداوليّة وتشابكها في قضايا عديدة، تجعل من التقريب التّداوليّ للتّراث البلاغيّ العربيّ منهجا لا يعزوه التأسيس اللّسانيّ لما بينهما من وشائج قربى وصلات في مباحثها، وأهمّ ما يمكن استخلاصه مما سبق:

- أنّ التّداوليّة في تجاوزها للمعنى الحرفي وبحثها في معاني المضمون تكون بذلك اقتربت من عمل البلاغة التي تتجاوز المعنى الحرفي الى معنى المعنى.
- التّداوليّة تأخذ على عاتقها دراسة الظّاهرة البلاغيّة ضمن معالجتها للاستعمال الخاصّ للّغة.
- الظّاهرة البلاغيّة في بعدها التّداوليّ تتلاقى مع النّظريّة السّياقيّة ونظريّة أفعال الكلام. وهما النّظريتان اللّتان كانتا لهما دور في تأسيس التّداوليّة الحديثة.
- التّداوليّة وما جاءت به من نظريات حديثة هي في واقع الأمر رؤية بمنظور جديد للظّواهر البلاغيّة من زاوية نظر تداوليّة.
- تطوّرت النّظريات البلاغيّة الجديدة وصارت تقدّم نفسها بأنّها نظريّة مقصديّة تداوليّة تعتني بالخطاب من حيث هو موضوع خارجيّ.

[24] فان ديك، النّصّ بنياته ووظائفه: مدخل أولى لعلم النّصّ، مقال ترجمه د. محمد العمري. ونشره ضمن كتابه: نظريّة الأدب في القرن العشرين، ص45.
[25] صحراوي (مسعود)، التداوليّة عند العلماء العرب، ص6.

المصادر والمراجع:

- أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، دت، ص07.
- برند شبلز: علم اللغة والدراسات الأدبيّة، تر: محمود جاد الرب، ص179.
- بعلي حفناوي: مسارات النّقد ومدرات ما بعد الحداثة، دار اليازوري العلمية، ط1، 2013، ص71.
- رولان بارت: البلاغة القديمة، تر: عبد الكبير الشرقاوي، الدار البيضاء، ص187.
- سعيد حسن بحيري: علم لغة النّصّ، المفاهيم والاتّجاهات، الشركة المصريّة العالميّة للنّشر لونجمان، القاهرة 1997م، ص12-13.
- صالح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، سلسلة عالم المعرفة، مطبعة السياسة، الكويت، 1992م، ص89.
- طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو الكوثر العقلي، ص216.
- طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط5.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص48-47.
- محمد العمري: بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظريّ وتطبيقيّ لدراسة الخطابة العربية (الخطابة في القرن الأول نموذجا)، إفريقيا الشرق- الدار البيضاء/ بيروت، ط3، 2002، ص43.
- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص6.
- ملاس مختار: البلاغة والتداولية قراءة في تداولية الخطاب البلاغي، ص149.
- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2000، ص169.
- هنريش بليت؛ البلاغة والأسلوبيّة نحو نموذج سيميائي لتحليل النصوص، ص26.